أهل الذمة في عهد المرابطين والموحدين

محمد عبد الله عبد
كلية التربية–جامعة بابل

المقدمة

يعد موضوع أهل الذمة في عهد المرابطين والموحدين من المواضع التراثية الجديدة التي لم تصل الى يد الباحثين والتي لم تدرس دراسة أكاديمية متخصصة قبل هذه الدراسة على حد علمنا.

ويهدف هذا البحث الى انصاف حكام الدولتين المرابطية والموحدية من التهم الموجه لهم من قبل الكتاب المستشرقين الذي أتهموا حكام هاتين الدولتين بأتخاذ سياسة متشدد أتجاه أهل الذمة في بلادي المغرب والأندلس.

إذ قام الكتاب المستشرقين باجتجزاء النصوص التاريخية وتسخيرها في خدمة أهوائهم وأغراضهم الشخصية ولم يتركوا للحيادية مجالاً في كتاباتهم كذلك لم يكلفوا أنفسهم عناء البحث للوصول الى الحقيقة التاريخية من منابعها الأصلية وأطلقوا أحكامهم جزافاً لذلك وجدنا أن من الواجب الديني والعلمي والتاريخي والأخلاقي أن تتصدى لمثل هذه الأفتراءات والأكاذيب.

أقتضت طبيعة البحث تقسيمه على تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة حيث تناول التمهيد عرضاً موجزاً لأوضاع أهل الذمة في المدة التي سبقت قيام الدولة المرابطية بينما ركز المبحث الأول على مناقشة أجراءات المرابطين أتجاه أهل الذمة واسبابها وتفنيد أراء المستشرقين بهذا الخصوص في حين سار المبحث الثاني والذي جاء بعنوان أهل الذمة في عهد الموحدين على نفس منوال المبحث الأول في عرض الحقائق التاريخية وتوضيحها أما المبحث الثالث والأخير فجاء رداً على أدعاءات المستشرقين وفي مقدمتهم ديوارنت الذي أكد أن النصارى لم يرتقوا المناصب العليا في الدولة لذلك جاء هذا البحث ليعرض مشاركات أهل الذمة في الحياة السياسية والعلمية.

أعتمدت الدراسة على جملة من المصادر بعضها ذا فائدة كبيرة لا يمكن الأستغاء عنها والبعض الأخر ذا فائدة ثانوية ومن أهم المصادر التي تم أستخدامها هي كتب التاريخ العام وكتب الجغرافية بالأضافة الى كتب التراجم وكثير من المراجع الحديثة والتي لايسع المجال لأستعراضها.

لم تخلُ الدراسة من صعوبات إذ أستغرق البحث في الموضع أكثر من سنة كاملة تجشمنا خلالها عناء البحث للحصول على معلومات جديدة لم تقع في يد الباحثين من خلال تجميع النتف التاريخية التي حملتها طيات الكتب والمصادر وتبويبها ووضعها في المكان المناسب ناهيك عن صعوبة الحصول على المصادر التي تخص تاريخ المغرب والأندلس.

وفي الختام أرجو أن تحقق هذه الدراسة الهدف الذي أعدت من أجله فأن اصبنا فهو القصد والمبتغى وأن أخطأنا فحسبنا أن لنا أجر المجتهدين.

ربنا لاتؤخذانا أن نسينا أو أخطأنا ، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

التمهيد

كان لتردي الأوضاع السياسية والإقتصادية والإجتماعية في شبه الجزيرة الإيبرية أبان حكم الملك القوطي لذريق الأثر الفاعل في تسهيل مهمة الفاتحين العرب وعبورهم الى الأندلس بقيادة القائد طارق بن زياد في حدود سنة (92هـ /710م)[1] . إذ كان المجتمع الإسباني يعيش حالة من الفوضى وعدم الإستقرار على مختلف الأصعدة السياسية والإجتماعية والإقتصادية بسبب الصراع على السلطة بين أفراد العائلة المالكة والذي القى بظلاله على تدني المستوى المعاشي للمجتمع الأسباني الذي كان يعاني أصلاً من الأنقسام الطبقي وتسلط طبقتا رجال الدين والنبلاء على مقدرات البلاد الإقتصادية وتسخير ما يسمى بطبقتي العامة والعبيد والتان تشكلان الغالبية العظمى من السكان في خدمة مصالحها الإقتصادية . ونتيجة لذلك كله لم يبدي النصارى مقاومة كبيرة للجيوش العربية الإسلامية التي اخذت تتدفق نحو مناطقهم بل على العكس من ذلك توسموا في هذه الجيوش الخير ونظروا اليها على انها المنقذ الذي سوف يخلصهم من الأوضاع المتردية التي كانوا يعيشون فيها[2]. ومما يؤكد ما ذهبنا اليه هو سرعة اندماج النصارى في بلاد الأندلس بالفاتحين العرب ويتضح ذلك من خلال حالات المصاهرة الكثيرة التي حدثت بين الطرفين ونذكر بهذا الخصوص زواج عبد العزيز بن موسى بن نصير من ارملة لذريق[3] أضافة الى ذلك فقد اعتنق قسم كبير منهم الدين الإسلامي وسمو تبعاً لذلك بالمولودين[4] وأصبحو متساوين مع العرب بالحقوق والأمتيازات أما الذين بقوا على ديانتهم وتثقفوا بثقافة وأدب العرب فسموا بالمستعربين[5] هذا بالنسبة للنصارى أما اليهود فقد حرموا أيضاً من ممارسة طقوسهم الدينية ، وجردو من ممتلكاتهم وأبعدوا عن المراكز الحساسة في الدولة لذلك كانوا من اشد المتحمسين لفكرة اسقاط مملكة القوط الغربيين وأبدوا تعاوناً كبير مع العرب الفاتحين وعملوا كأدلاء لهم لمعرفتهم بمكامن القوه والضعف لدى الأعداء أضافة الى استخدامهم في التحصينات الدفاعية التي كان يقيمها العرب في المناطق المفتوحة في بلاد الأندلس[6] .قابل العرب المسلمون تعاون اهل الذمة معهم بدرجة كبيرة من التسامح الديني وكان اداء الجزية هو كل ما يفرض على الذميين من اليهود والنصارى مقابل حماية الدولة لهم وهذا ماأقرته الشريعة السماوية السمحاء. وكانت الجزية تسقط عن الذمي في حالة دخوله الأسلام كذلك سمح لأهل الذمة بحق اتباع قوانينهم وتقاليدهم والخضوع لقضائهم وقضاتهم . وكانوا يختارون في أغلب الأحيان قضاتهم من ابناء جلدتهم ممن يعهد اليهم عملية جمع الضرائب والأشراف على النظام والكنيسة[7].

اضافة الى ذلك فلم تكن المناصب الإدارية الحساسة في الدولة حكراً على العرب كما كان ذلك في عهد القوط الغربيين بل وصلت شخصيات من اهل الذمة الى اماكن مرموقة في الدولة ومنها الوزاره حيث تقلد هذا المنصب حسداي بن شبروط خلال مدة حكم الخليفة الناصر لدين الله الأموي وولده الحكم المستنصر (300-366)هـ، (913-977)م وقد ساعده على ذلك معرفته باللغة والثقافة العربية[8] وأستمر الحال كما هو عليه في عهد الطوائف (422-484)هـ، (1031-1092)م حيث تقلد المنصب اسماعيل بن النغزلية وأتخذ عمالاً ومتصرفين من اليهود فأكتسبوا المال والمراتب الإ ان الأخير لم يقتنع بالمنزلة الرفيعة التي وصل اليها وأخذ يتآمر على سيده باديس بن حبوس أمير غرناطة مع صاحب المرية بن صمادح وقد اتفق معه على فتح ابواب المدينة في الليل بعد ان اخرج قواد المدينة باتجاه الحدود مع اشبيلية بعد ترويجه لفكرة تعرض المدينة للغزو من قبل امير اشبيلية المعتمد بن عباد إلا ان مؤامرته هذه كشفت ونال عقابه الذي يستحقه وهو الموت[9] وقبل ان نختم عرضنا الموجز لأوضاع اهل الذمة في بلاد الأندلس في المدة التي سبقت قيام دولة المرابطين لا يفوتنا التطرق الى اوضاعهم في بلاد المغرب العربي في الحقبة المذكورة على الرغم من احجام

المصادر عن ذكر أي دور أيجابي لأهل الذمة خلال مدة الفتح المذكورة وفي الحقب التي تلتها إلا ان هذا الدور أخذ بالتنامي بعد انفراط عقد الدولة الأموية في الشام وقيام الكيانات المستقلة عن سلطة العباسيين في هذه المنطقة حيث تشير النصوص التاريخية الى ان يهود سجلماسه لعبوا دوراً كبيراً في بناء هذه المدينة لتكون حاضرة لدولة الخوارج الصفرية[10].

كذلك تشير هذه النصوص الى الدور الذي لعبه ربضية الأندلس في بناء مدينة فاس عدوة الأندلس في عهد الأمير ادريس الثاني عندما قدموا بإعداد كبيرة الى بلاد المغرب العربي أثر الثورة التي قام بها ربضية قرطبة وهي ما تسمى بهيجة الربض حيث قام الأمير الحكم بن هشام (180–206)هـ ، (796–822)م بنفيهم من الأندلس[11].

مما تقدم يتضح بأن اهل الذمة لقوا معاملة حسنة من قبل العرب المسلمين في الأندلس وتدرجوا في المناصب الإدارية الحساسة في الدولة إلا انهم لم يقتنعوا بما وصلوا اليه من منزلة رفيعة وأخذوا يتآمرون على بعض الحكام العرب المسلمين وذلك من خلال أثارت النعرات بين ملوك الطوائف في الأندلس تارة وبالتعاون المباشر مع العدو القشتاليين تارة أخرى وهذا ما يفسر لنا السياسة المتشددة التي اتخذها بعض أمراء المرابطين والموحدين أتجاه أهل الذمة والذي سنتناوله في الصفحات اللاحقة.

الذمة في اللغة العربية والأصطلاح

الذمة لغة تعني العهد والأمان ، وأهل الذمة هم المعاهدون من النصارى واليهود ممن يقيموا بدار الأسلام)[12]

والذمة في الفقه الأسلامي هي العهد والأمان الذي يعطى للقوم الذين لم يدخلوا الاسلام عند فتح المسلمين لبلادهم ولايسترقون ويؤمنون على حياتهم وحريتهم وأموالهم وعادتهم مقابل دفع مبلغ من المال للدولة الأسلامية يعرف بالجزية لقاء حماية الدولة لهم[13] والحكمة في عقد الذمة مع غير المسلمين هو أحتمال دخولهم في الاسلام عن طريق مخالطتهم للمسليمن وأطلاعهم على شرائع الاسلام وليس المقصود عقد الذمة هو تحصيل المال[14]. وقد أنسحب مفهوم أهل الذمة على أصحاب الديانات السماوية الأخرى كالصابئة والمجوس. إلا أن دراستنا هذه ستركز على اليهود والنصارى لعدم وجود أشارات على وجود الصابئه والمجوس في بلاد المغرب والأندلس في هذه الحقبة التاريخية.

أهل الذمة في عهد المرابطين

أتخذ بعض الأمراء المرابطون سياسية متشددة أتجاه أهل الذمة ولم تكن هذه السياسية ناتجة عن تعصب ديني كما ذهب اليه بعض المستشرقين[15]، وأنما كانت استجابة للظروف الصعبة التي كانت تمر بها الدولة العربية الإسلامية نتيجة للحروب الطاحنة التي اعلنها الصليبيون في جهة المشرق[16] تزامن مع حالة من الفرقة والتشتت والتناحر بين ملوك الطوائف الاسلامية في بلاد الأندلس الأمر الذي ترتب عليه سقوط الكثير من المدن والحصون الإسلامية بيد نصارى اسبانية ولم يساند أهل الذمة الدول المسلمون في الأندلس في صراعهم ضد أعدائهم القشتاليين بل سعوا بدلاً من ذلك الى الكيد والتأمر على المسلمين وتحريض ملوك النصارى ضدهم وعملوا بمثابة أدلاء وجواسيس للنصارى وكشفوا لهم عن مكامن القوة والضعف لدى المسلمين وكان نتيجة سقوط طليطلة حدود سنة (484هـ/1091م) وبعدها سقوط سرقسطة حدود (512هـ/1118م)[17] وتوالت انتصارات النصارى وظن أهل الذمة ان بوسعهم اسقاط الدولة العربية الإسلامية في الأندلس وإعادة مجد مملكة قشتا له لذلك لم يتوانوا من استدعاء القائد الإسباني بن رذمير لفتح مدينة غرناطة بعد ان ذكروا له محاسن المدينة وكثرة خيراتها وبذلك يقول بن عذارى[18] (وفي هذه السنة

– أي سنة 519– خاطب أهل نظر أغرناطة من جبل دور والبشارات لابن ردمير وتوالت عليه كتبهم وتواترت رسلهم ملحة عليه في الأستدعاء مطمعة له بدخول اغرناطة ووجهوا له زماماً يشتمل على اثني عشر الفاً من مقاتلتهم وأعلموه أن هؤلاء ممن شهدت أعينهم لقرب مواضعهم) ويضيف الى ذلك صاحب الحلل الموشية[19] (فأستثارو طمعه وأبتعثوا جشعه ، واستفزوه بأوصاف غرناطة ، ومالها من الفضائل على سائر البلاد وكثرة فوائدها من القمح والشعير والكتان وكثرة المرافق من الحرير والكروم والزيتون وأنواع الفواكه ، وكثرة العيون والأنهار) وكان نتيجة ذلك أن قام بن رذمير بمهاجمة المدينة الأمر الذي ترتب عليه حدوث اضرار كثيرة بسكان المدينة نتيجة طول مدة الحصار وقد اثارت اعمال أهل الذمة هذه حفيظة الفقهاء فأصدر القاضي ابو الوليد بن رشد فتوى بتهجير أهل الذمة الذين تعاونوا مع أعداء المسلمين عن أوطانهم (وفي هذه السنة – أي سنة 519– احتسب القاضي أبو الوليد بن رشد – أجره الله وتجشم النهوض الى حضرة مراكش ، فتلقاه أمير المسلمين بالمكرمة والميرة ، وبين له القاضي امر الأندلس ومابليت به من معاهداتها وما وجروه اليها وجنوه عليها استدعاء أبن ردمير ، وما في ذلك من نقص العهد والخروج عن الذمة واصغى اليه الأمير علي وتلقى قوله بالقبول ، فوقع نظره على تغريبهم وأجلائهم عن اوطانهم وهو أخف ما يؤخذ بهم من عقابهم ونفذ عهده الى جميع بلاد الأندلس [بإجلاء] المعاهدين الى العدوة فنفي منهم في رمضان عدد جم أنكرتهم الأهواء ، وأكلتهم الطرق ونسفتهم الأسفار ونزل فيهم الوباء وفرقهم الله شذر مذر وأحل بهم عاقبة مكرهم وأذاقهم وبال أمرهم ولايحيق المكر السيء إلا بإهله)[20].

وقد استجاب علي بن يوسف للفتوى التي اصدرها ابو الوليد بن رشد وقام بتهجير النصارى الى بلاد المغرب حيث سكنوا مناطق مكناسة وسلا وغيرها من بلاد العدوة[21].

ولم يكتف علي بن يوسف بهذا الإجراء بل ذهب الى ابعد من ذلك وأصدر أوامره بمنع اليهود من المبيت في مدينة مراكش اثناء الليل وسمح فقط بالعمل فيها في النهار والإنصراف عنها في الليل وهذا ما اكده الإدريسي[22] (واغمات أيلان مدينة صغيرة في اسفل جبل درن المذكور، وبهذه المدينة يسكن يهود تلك البلاد وهي مدينة حسنة كثيرة الخصب كاملة النعم ، وكانت اليهود لاتسكن مدينة مراكش عن امر اميرها علي بن يوسف ولا تدخلها إلا نهاراً وتنصرف عنها عشية وليس دخولهم في النهار اليها إلا لأمور له وخدم تختص به ومتى عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه ، فكانوا ينافرون المبيت فيها حياطه على اموالهم وانفسهم).

وقد حظيت اجراءات المرابطين الوقائية هذه برضى عامة الناس الذين قطعوا على انفسهم عدم مخالطة اهل الذمة وأتخاذ الحيطة والحذر منهم ، وبذلك يقول الجيرسيقي[23] (ويمنع أهل الذمة من الأشراف على المسلمين في منازلهم ، والتكشيف عليهم ومن اظهار الخمر والخنزير في اسواق المسلمين ، ومن ركوب الخيل بالسروج ، والزي بما هو من زي المسلمين ، او بما هو من ابهة ، وينصب عليهم علماً يمتازون به من المسلمين كالشكلة في حق الرجال والجلجل في حق النساء ويمنع المسلمين ان يحاولوا لهم كل ما فيه خساسة أو اذلال للمسلمين كطرح الكناسة ونقل الآت الخمر ، ورعاية الخنازير ، وشبه ذلك لما فيه من علو الكفر على الإسلام ويؤدب من فعل ذلك).

وبذلك يمكن القول أن جملة الإجراءات التي اتخذها المرابطون اتجاه اهل الذمة هي اجراءات وقائية عادلة لا تنم عن تعصب ديني ضمنت للدولة المرابطية سلامة أمنها الداخلي وحالت دون تسرب المعلومات

الحساسة الخاصة بأجهزة الدولة الى العدو عن طريق الجواسيس والعيون من اهل الذمة وقد اسهمت هذه الإجراءات بدور فاعل في شل حركة المتآمرين منهم.

أهل الذمة في عهد الموحدين

سار الموحدون على سياسة سلفهم المرابطين باتخاذ مواقف متشددة اتجاه اهل الذمة ان هذه المواقف كانت متباينة وفقاً لدرجة تمسك الأمراء الموحدون بمبادئ الدعوة الموحدية وأن هذه المواقف لم تكن ناتجة عن تعصب ديني كما ذكرنا سلفاً في حديثنا عن اهل الذمة في عهد المرابطين وإنما كانت تحصيل حاصل لتعاونهم مع اعداء المسلمين ومن مظاهر تآمر أهل الذمة في عهد الموحدين هو ما قام به يهود غرناطة من الاتصال مع بن همشك ومعاونته على مهاجمة مدينة غرناطة منتهزين فرصة غياب واليها ابو سعيد عثمان بن عبد المؤمن في مراكش وعلى أثر ذلك جرت معركة مرج الرقاد بالقرب من غرناطة أنهزم فيها الموحدون وتكبدوا خسائر كبيرة في النفوس والأموال والسلاح وكان ذلك في حدود سنة (557هـ / 1162م)[24]، وبذلك يقول المراكشي[25] (وجن في خاطره الفاسدة [يقصد بن همشك] أن يغدر مدينة أغرناطة إذ هي بمقربة منه فداخل من بها من اليهود لعنهم الله وأرتبط معهم على أن يجتمعوا بالليل ويعدوه بليلة معينة يصلحهم فيها الى باب الربض فيكسرون الباب ويدخلونه، فكان ذلك كذلك ودخلها في هذه السنة وكان واليها السيد أبو سعيد قد نهض لزيارة أبيه بالحضرة المراكشية).

إضافة الى ذلك فأن الأمير عبد المؤمن بن علي قد لمس بنفسه خيانه أهل الذمة في الجيش المرابطي عندما كان محاصراً لمدينة مراكش حيث أتصلوا به وأتفقوا معه على فتح أبواب المدينة مقابل أن يأمنهم على أموالهم وأنفسهم بعد أن عانوا الأمرين من جراء طول مدة الحصار وشحة الموؤن[26].

ومما يؤثر عن اليهود أنهم كانوا يرافقون جيوش الأعداء في المعارك لشراء أسرى المسلمين وأسلابهم وهذا ما يؤكده الضبي[27] في معرض وصفة لجيش الفونسوا الثامن (ينيف على خمس وعشرين الف فارس ومئتي الف رجل وكان معهم جماعات من تجار اليهود قد وصلوا لأشتراء أسرى المسلمين وأسلابهم وأعدوا لذلك أموالاً فهزمه الله تعالى).

أن كل هذه الاعمال المشينة التي كانت تصدر عن أهل الذمة دفعت الامراء الموحدين الىأتخاذ سياسة متشددة أتجاههم فرضتها عليهم طبيعة المرحلة التي كانت تمر فيها الدولة لذلك أحضر عبدالمؤمن بن علي أهل الذمة وخيرهم بين ثلاث أما الإسلام أو ترك البلاد أو القتل[28]، وقد حدد مدة معلومة للمغادرة أما من أسلم فيصبح من رعايا الدولة يتساوى مع المسلمين بالحقوق والواجبات ونتيجة لهذه السياسة فقد غادر الكثير من اليهود والنصارى البلاد وبذلك يقول القفطي[29] (لما نادى عبدالمؤمن بن علي الكومي البربري على المغرب في البلاد التي ملكها بإخراج اليهود والنصارى منها وقدر لهم وشرط لمن أسلم منهم بموضعه على اسباب أرتزاقه ما للمسلمين وعليهم ومن بقى على رأي أهل ملته فأما أن يخرج قبل الأجل الذي أجله وأما أن يكون بعد الأجل في حكم السلطان مستهلك النفس والمال، ولما أستقر هذا الأمر خرج المخفون وبقي من شغل ظهره وشح بإهله وماله وأظهر الأسلام وأسر الكفر).

وقد أعجبت سياسة عبدالمؤمن هذه شعبه فنرى الرحالة ابن جبير[30] يشيد بالأسلام عند الموحدين ويقول (وليتحقق المتحقق ويعتقد الصحيح الاعتقاد. أنه لا أسلام إلا ببلاد المغرب لأنهم على جادة واضحة لابنيات لها... كما أنه لا عدل ولا حق ولا دين على وجهها إلا عند الموحدين).

كذلك دفعت هذه السياسة المتشددة أحد المؤرخين[31] الى التصريح بخلو بلاد المغرب خلال هذه المدة من أهل الذمة (ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودي ولا نصراني منذ قام أمر المصامدة ولا في جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعه و لاكنيسه أنما اليهود عندنا يظهرون الاسلام ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جارين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم). إلا أن سير الأحداث التاريخية في البلاد المذكورة أثبت عكس ذلك حيث تشير النصوص التاريخية الى وجودهم في مناطق مختلفة من بلاد المغرب العربي وخاصة في جبال فازار وفي مدينتي سجلماسة وفاس وكانوا يعملون في التجاره ويمتلكون ثروات طائلة[32].

إضافة الى ذلك فأن هذه النصوص تؤكد على وجود أهل الذمة في مدينة مراكش في عهد يعقوب المنصور الموحدي وأنهم كانوا من جملة الناس الذين خرجوا للأستسقاء عندما حدث قحط شديد في هذه المدينة[33] وقد أمر يعقوب المنصور بتمييزهم بملابس خاصة وهذا الأمر ما كان يحدث لولا تواجدهم بشكل كبير في هذه البلاد وهذا ما أكده عبد الواحد المراكشي[34] نفسه في مناسبة ثانية (وفي أخر أيام أبي يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم، وذلك ثياب كحلية وأكمام مفرطة السعة تصل الى قريب من أقدامهم، وبدلاً من العمائم كلوتات على اشنع صورة كأنها البراديع تبلغ الى تحت أذانهم فشاع هذا الزي في جميع يهود المغرب، ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدر من أيام أبنه أبى عبدالله الى أن غيره أبو عبدالله المذكور بعد أن توسلوا اليه بكل وسيلة، وأستشفعوا بكل من يظنون أن شفاعته تنفعهم فأمرهم أبو عبدالله بلبسان ثياب صفر وعمائم صفر فهم على هذا الزي الى وقتنا هذا ــ وهو سنة 621هـ ــ وأنما حمل ابا يوسف على ما صنعه من أفرادهم بهذا الزي وتمييزه إياهم به شكه في أسلامهم وكان يقول لو صح عندي أسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين في أنكحتهم وسائر أمورهم).

ألتزمت المصادر التاريخية الصمت أتجاه وضع أهل الذمة في المدة التي أعقبت حكم المنصور وولده الناصر وربما السبب في ذلك يعود الى عدم حدوث تغييرات جوهرية في سياسة الموحدين المتشددة في التعامل مع أهل الذمة، وبقي الحال كما هو عليه حتى عهد الأمير الموحدي أدريس المامون (624ــ629هـ/1226 ــ 1231م) الذي شهد عهده صراعاً على السلطة مع أبن أخيه يحيى الناصر فلم يجد الأخير من بد سوى الأستعانه بفرديناند الثالث ملك قشتاله الذي وافق على مد يد العون للأمير أدريس المأمون مقابل شروط أورد ملخصها المؤرخ ابن أبي زرع[35] وهي أن يسلمه المأمون عشرة من الحصون الإسلامية في منطقة الحدود يختارها بنفسه وأن تبنى في مدينة مراكش كنيسة للنصارى يقيمون فيها شعائرهم وأنه اذا أسلم أحد من النصارى فلا يقبل منه اسلامه ويرد الى اخوانه يفضون أمره وفق مايرون وان تنصر بالعكس احد المسلمين فليس لأحد عليه سبيل، وافق ادريس المأمون على هذه الشروط وشرع في بناءه اسقفية للنصارى في العاصمة سميت بكنيسة نوتردام وعين البابا انوسان الرابع أنجلو كأول اسقف لهذه الكنيسة ووصل الأخير الى مدينة مراكش وعمل فيها[36]

وبذلك يمكن القول بأن المعاهدة التي وقعت بين ادريس المأمون وفرديناند الثالث ملك قشتالة هي نقطة تحول في تاريخ العلاقة بين الموحدين واهل الذمة الذين اصبح بمقدورهم ممارسة طقوسهم الدينية بحرية تامة إلا ان صفوة العلاقة مابين الطرفين سرعان ماتعكر بسبب مهاجمة يحيى الناصر لمدينة مراكش بعد ان انضم اليه عرب سفيان بقيادة شيخهم جرمون بن عيسى وابو سعيد بن وانودين شيخ هنتانه واقتحم المدينة بالقوة وتمكن من دخولها بسبب افتقارها للتحصينات الدفاعية[37] وعدم وجود أدريس المأمون فيها اذ ان

الأخير كان محاصراً لمدينة سبتة في تلك الأثناء لذلك استبيحت مدينة مراكش من قبل يحيى الناصر الذي امر جنوده بهدم الكنيسة النصرانية التي بناها ادريس المأمون وقتل وسبي الكثير من اليهود والنصارى[38].

وصلت هذه الأنباء المأمون وهو محاصراً لمدينة سبته فرفع الحصار عن المدينة وتوجه مسرعاً نحو مراكش واصدر الدعوة لجنده من النصارى باستباحت المدينة لمدة ثلاثة ايام بسبب معاونة اهلها للناصر وانتقاماً لما حل بالنصارى وكنيستهم من قتل وتدمير وفي هذه الأثناء توفي الأمير أدريس المأمون قبل ان يحقق مبتغاه ويتمكن من هزيمة خصمه يحيى الناصر ليترك هذه المهمة لأخيه الرشيد الذي قام بها على احسن وجه وتمكن من هزيمة الأخير[39] ونتيجة لهذه الأحداث المتسارعة في بلاد المغرب العربي بادر البابا انوسان الرابع الى ارسال القس لوبي فرناندیث الى مراكش في عهد الأمير الموحدي السعيد بن المأمون (640-646)هـ (1242-1248)م ليكون اسقفا على المدينة ولينقل في الوقت نفسه مباركة البابا للإنتصارات الكثيرة التي حققها السعيد على خصومه في مدينة سجلماسة وباقي مدن المغرب كذلك نقل فرناندث للجند النصارى اشادت البابا بالدور الكبير الذي لعبوه في تلك المعارك[40].

اضافة الى ذلك حث الرسول البابوي الأمير الموحدي السعيد على استقبال طوائف جديدة من الجند النصارى ليكونوا عوناً له في صراعه ضد خصومه وليأمنوا في الوقت نفسه الحماية للنصارى والكنائس الموجودة في مدينة مراكش لكي لا يتكرر ما حدث في أيام الناصر من انتهاك لحقوق المسيحيين في البلاد كذلك طلب من السعيد اعتناق النصرانية لكي يغنم حماية الله والكرسي البابوي وكتب البابا في الوقت نفسه الى أمراء تونس وبجاية وسبته يطلب منهم تسهيل اتصال النصارى بعضهم بالبعض الآخر[41].

أن ما حدث من تغيير في سياسة الموحدين أتجاه أهل الذمة في عهد أدريس المأمون وأبنه السعيد لايمثل تغييراً جوهرياً في سياسة الدولة الموحدية أتجاه أهل الذمة وإنما كان تحصيل حاصل لضعف الدولة في عهد الأمير المذكور نتيجة الصراع على السلطة بين أفراد العائلة الحاكمة وما ترتب عليه من تدخل ملوك قشتاله في هذا الصراع وترجيح كفة طرف على أخر بغية أضعاف الدولة الموحدية الى أبعد حد ممكن بما يضمن مصالح ابناء جلدتهم النصارى الذين يعيشون في كنف الدولة الموحدية.

استمرت المراسلات بين البابا والأمراء الموحدين في المدة التي اعقبت حكم الأمير السعيد وبالتحديد في عهد المرتضى الموحدي (646-665هـ)(1248-1266م) وقد اورد لنا بهذا الصدد الدكتور محمد عبد الله عنان[42] وثيقة تكاد تكون نادرة عثر عليها في مكتبه الفاتيكان الرسولية تشير الى وقوع مكاتبات بين الأمير الموحدي المرتضى لله والبابا انوسان الرابع كما يفهم ذلك من الوثيقة نفسها (فأنه سبقت منا اليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة الينا ، وارسلنا نحوكم من الجواب عنها ماتمننا به بركم ووفينا).

ومن خلال القراءة المتأنية لهذه الوثيقة والتي تعد بمثابة رسالة موجه من قبل الأمير الموحدي المرتضى لله الى البابا انوسان الرابع يتضح ما يلي :

اولاً : تعهد الأمير المرتضى الموحدي للبابا بالحفاظ على مصالح النصارى الموجودين في مراكش وتوفير الأمن لهم مبدياً في الوقت نفسه استعداد الدولة الموحدية استقبال الشخص الذي تتوسم به البابوية المقدرة على ادارة شؤون ابناء جلدته (ومتى سنح لكم اسعدكم الله بتقواه ان توجهوا لهؤلاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين – اعزهم الله – من ترونه برسم ما يصلحهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانينهم فتخيروه من اهل العقل الراجح والسمت الحسن وممن يستلذ في النزاهة على واضح السنن وممن يتميز في الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن وذلكم هو الذي اذا تعين من قبلكم مستجمعاً

للصفات المذكوره ومتحلياً بالخلال المشكورة حسن في كل ما يستخدم ، وتسنى له بذلك اجزل الخير واوفره)[43].

ثانياً : رفضه للعرض الذي تقدم به البابا انوسان الرابع الى سلفه الأمير السعيد علي بن المأمون والذي دعا فيها الى اعتناق النصرانية ((نحمد الله الذي لا اله الا هو ، حمد من علم أنه الرب الواحد الذي دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ونزهته العقول الراجحة على ان يكون له ولد او يدعي انه الوالد تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبة والجاحد ونصلي على سيدنا محمد رسوله المصطفى الكريم الذي وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد))[44]

ثالثاً: اشادته بالمعاملة الحسنة التي عومل بها سفير البابوية الذي وصل الى مراكش في عهد الأمير السعيد القس لوبي فرناندیث ((وفي سالف هذه الأيام انصرف عن حضرة الموحدين – أعزهم الله – البشب الذي كان قد وصل بكتابكم الينا ، انصرافاً لم يعهده منافيه بروأكرام ، ولم يغبه فيه اعتناء به واهتمام ، كما انه في المدة قضى له فيها لدينا بالمقام ، لم نزل نتعهد اثناءها بالإحسان والأنعام وتحمل كتابنا اليكم تعريفاً بما اختار من انصرافه))[45] يفهم من خلال النص ان القس لوبي فرناندیث هو الذي حمل كتاب المرتضى الى البابا انوسان الرابع وسنورد في نهاية هذا البحث الصورة الفوتوغرافية ونص الكتاب .

مما تقدم يتضح بأن اهل الذمة واجهوا معاملة متشددة في مدة حكم الأمير عبد المؤمن بن علي وحفيده يعقوب المنصور الا ان سياسة التشدد هذه لم تكن ناجمه عن تعصب ديني كما ذهب اليه بعض المستشرقون وذلك لان الدين الإسلامي دين متسامح يؤكد على عدم الإكراه في الدين وان جملة الإجراءات التي اتخذها الموحدون هي اجراءات وقائية وقتية فرضتها عليهم طبيعة الظروف التي كانت تمر بها الدولة الموحدية اضافة الى التشدد الديني الذي صاحب قيام الدولة.

ومما يؤكد ماذهبنا اليه هو ما تمتع به اهل الذمة من حرية في اداء الطقوس الدينية واقامة الكنائس وضرب النواقيس للصلاة في الحقبة التي اعقبت حكم المنصور الموحدي وخاصة في عهد أدريس المأمون وخلفائه الذين اعتمدوا على الجند النصارى في تثبيت اركان حكمهم .

مشاركة اهل الذمة في الحياة السياسية والثقافية

اتصفة كتابات المستشرقون[46] اتجاه اهل الذمة بعدم الحيادية وحاولوا ان يصورا ما قام به المرابطون والموحدون بأنه اضطهاد ديني غير آبهين بالدوافع التي دفعت المسلمين الى القيام بمثل هذه الأعمال والتي جاءت كرد فعل على العمليات التآمرية التي كان يقوم بها أهل الذمة اتجاه المسلمين وقد فند الدكتور حسن علي حسن[47] هذه المزاعم والقى بالأمة على المستشرقين الذي ابتعدوا عن الحيادية في كتاباتهم مدفوعين بدوافع سياسية .

ومن خلال القراءة المتأنية للنصوص التاريخية يتضح بأن اهل الذمة لعبوا دور كبيراً في الحياة السياسية والثقافية والأقتصادية في عهد المرابطين والموحدين ووصلت بعض الشخصيات من اهل الذمة الى اماكن مرموقة في الدول وخير مثال على ذلك شخصية الربتير وابنه علي والتي سنعتمدها نموذجاً لمشاركات اهل الذمة في الحياة السياسية.

تشير المصادر التاريخية الى ان علي بن يوسف بن تاشفين هو اول من استخدم النصارى في الجيش المرابطي[48] وبالتحديد بعد حادثة تغريب النصارى المعاهدين بالأندلس على اثر تآمرهم مع القائد الأسباني بن رذمير لفتح مدينة غرناطة[49] ونتيجة للأخلاص والشجاعة التي اظهرها هؤلاء الجند فقد توسع الأمير علي

بن يوسف في استخدامهم وكانت غالبيتهم من بلاد الأندلس حتى تكونت منهم فرقة عسكرية اسندت قيادتها فيما بعد الى الربتير وهو من اشراف برشلونه عبر الى المغرب نتيجة لخلاف حدث بينه وبين أمير برشلونه برنجار زاموان والتحق بخدمة الأمير علي بن يوسف الذي عينه قائداً لحرسه الخاص بسبب ما كان يمتاز به من شجاعة وأقدام[50].

وهذا ما اكده أبن صاحب الصلاة[51] في معرض ذكره لمقتل هذا القائد (كان هذا الرومي من اكبر الطغاة في الأندلس نجده وظهور متصله فتردي في حافة عظيمة وتغلب الموحدين على من قدر الله بوفاته من اللمتونين) وكان لهذا القائد دور كبير في المعارك التي نشبت بين المرابطين والموحدين واستطاع هزيمة الموحدين في اكثر من مناسبة واجبرهم على تغيير إستراتيجيتهم القائمة على التوسع في المغرب الأقصى مقر الدولة المرابطة والذهاب بدل من ذلك الى بلاد المغرب الأوسط والأدنى لتحقيق مكاسب عسكرية هناك .

شغل الربتير منصب القائد العام للجيوش المرابطة في اغلب المعارك التي خاضها ضد الموحدين وخصوصاً تلك التي وقعت في ارض كدميوه والسوس[52] وأستطاع من ايقاف تقدم الجيوش الموحدية بقيادة عبد المؤمن بن علي بإتجاه السوس وأجبرها على التراجع نحو تينملل بعد ان كبد الجيش الموحدي خسائر كبيرة بالمعدات والأرواح وكان من نتائج هذه المعركة ان جرح الربتير وكان ذلك في حدود سنة (535هـ/1140م)[53].

إلا ان أصابته في هذه المعركة لم تثني من عزمه في مواصلة القتال ضد الموحدين ففي طريق عودته الى مراكش هاجم محلة الموحدين وسبي النساء وكان من جملة السبايا زوجة يعزا بن مخلوف وهو احد قادة الموحدين أطلق سراحها فيما بعد من قبل الأمير المرابطي علي بن يوسف إستجابة لما قام به عبد المؤمن بن علي من اطلاق سراح نساء من لمتونه اسرت في اثناء المعارك التي نشبت بين الطرفين حسب ما يذكر البيدق[54].

وفي اوائل سنة (536هـ/1141م) هاجم الربتير محلة الموحدين في الأفلاج فخرج اليه الموحدون بقيادة يحيى اغوال ونشبت معركة عنيفة بين الطرفين هزم فيها الموحدون وقتل قائدهم واحتز راسه وأرسل الى فاس[55].

وأستمرت المعارك سجالاً ما بين الطرفين حتى سنة (539هـ/1144م) وفي هذه السنة حدث اختلال في موازين القوى بين الطرفين على اثر مصرع القائد الرومي الربتير الذي كان لمصرعه الأثر السيء على معنويات الجيش المرابطي الذي بدأ بالأنهيار اتجاه الضربات الموجعة التي كان يتلقاها من الجيش الموحدي حتى سقطت مراكش في حدود سنة (541هـ/1146م)[56].

وقد اختلفت الروايا التاريخية في سرد تفاصيل مصرع هذا القائد فالبيدق[57] يذكر ان الربتير هلك في معركة عنيفة حدثت بينه وبين الموحدين في موضع يسمى (تاكوط ان تيفسرت) ولم يسلم من معسكره سوى ثلاثة من الروم وثلاثة من المرابطين ويكتفي ابن عذارى[58] بذكر مقتل هذا القائد دون خوض في التفاصيل ويحدد سنة (539هـ/1144م) تاريخاً لذلك أما ابن خلدون[59] فيعطي رواية مخالفة لرواية البيدق حيث يشير الى مقتل الربتير اثناء اغارته على بني سندم وزناته وتبدوا رواية البيدق اقرب الى الواقع بسبب معاصرته لدولة الموحدين .

مهما يكن من امر فقد خسر المرابطون قائداً شجاعاً استطاع إيقاف المد الموحدي خلال المدة الممتدة من سنة (528هـ/1223م) وحتى سنة (539هـ/1144م) اما بالنسبة للفرقة النصرانية التي كان يقودها فقد

تفرقت وعبرت البحر صوب مدينة طليطلة فأحسن الفونسوا السابع ملك قشتالة استقبالهم وشكرهم على تمسكهم بدينهم مدة تواجدهم مع المرابطين (60).

ترك الربتير بعد وفاته ولدين اعتنق احدهم الإسلام بإسم علي بن الربتير والآخر تحجم المصادر عن ذكر اسمه.

أمتاز علي بن الربتير بشخصية مرموقة مكنته من اعتلاء مناصب سياسية كبيرة في دولة الموحدين وظهر ذلك جلياً عندما بعثه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سفيراً من قبل الدولة الموحدية الى منطقة الجزائر الشرقية ليعرض على حاكمها محمد بن غانية الدخول في طاعة الموحدين (61) .

إستجاب محمد ابن غانية مضطراً لدعوة يوسف بن عبد المؤمن رغم معارضة أخوته الذين ثارو ضده واعتقلوه وعينو أخيه علياً حاكماً على الجزائر بدلاً منه في هذه الأثناء وصلت الأخبار بخسارة الموحدين أمام الأسبان في معركة شنترين (580 هـ / 1184م) ووفاة الأمير يوسف الأمر الذي دفع علي بن غانية وأخوانه الى رفض الدخول في طاعة الموحدين جهاراً بعد أن كانوا مترددين خوفاً من بطش الأمير يوسف وقاموا بإيداع علي بن الربتير في السجن(62).

أستغل علي بن الربتير فرصة غياب بنو غانية عن الجزائر الشرقية وأنشغالهم في الفتوحات في بلاد أفريقية فأتصل بأبناء جلدته من النصارى الذين كانوا يحرسون معتقله وكان معظمهم يروم مغادرة الجزيرة الى وطنه فوعدهم على تحقيق غرضهم مقابل مساعدته على القيام بأنقلاب ضد حكم بني غانية وقد أجابه النصارى لذلك ودبرو المؤامرة في يوم الجمعة من سنة (581هـ/1185م) حيث تم خلع طلحة بن أسحاق بن غانية عن حكم الجزيرة وتعيين أخاه محمد بدلاً منه وبذلك يمكن القول بإن علي أبن الربتير لعب دوراً كبيراً في أرجاع هذه الجزائر لسلطة الموحدين(63).

مما تقدم يتضح بإن أهل الذمة وبالخصوص النصارى وصلوا الى مناصب عسكرية وسياسية عليا في الدولة وأن النصوص التاريخية الأنفة الذكر تدحض ما ذهب اليه بعض المستشرقون وفي مقدمتهم ديوارنت(64) الذي أشار الى أن المسحيين كانت تعترضهم عقبات كبيرة في سبيل الرقي في مناصب عليا في الدولة (أما المسيحيون فكانت تعترضهم في سبيل الرقي في مناصب الدولة عقبات أكبر مما يعترض اليهود).

أما بالنسبة لمشاركة أهل الذمة في رفد الحركة العلمية بمختلف فنون العلم والمعرفة فلم يكن أقل شأناً من مشاركتهم في الحياة السياسية وخير مثال على ذلك العلامة اليهودي موسى بن ميمون وأسمه العربي أبو عمران، موسى بن ميمون القرطبي(65) ولد بقرطبة سنة (530هـ/1135م) ودرس فيها الطب والفلسفة على يد علماء عصره.

ولما قامت الدولة الموحدية حملت الرعية على أقامة أركان الأسلام وتنفيذ أحكامه بصرامة وحزم كذلك أتخذت مواقف متشددة أتجاه أهل الذمة فأحضر عبد المؤمن بن علي أهل الذمة وخيرهم بين ثلاث أما الأسلام أو ترك البلاد أو القتل وقد حدد لهم مدة معلومة لمغادرة البلاد إما من أسلم فيصبح من رعايا الدولة يتساوى مع المسلمين بالحقوق والواجبات لذلك تظاهر كثير من النصارى واليهود بإعتناق الإسلام(66) وكان من هؤلاء موسى بن ميمون وأسرته الى أن سنحت الفرصة فغادر الأندلس متوجهاً نحو المغرب في سنة (557هـ / 1161م) وبقي عدة أعوام في مدينة فاس وهو يزاول مهنة الطب التي أشتهر بها. غادر بعد ذلك وبالتحديد في سنة (561هـ / 1165م) الى مصر وسكن في محلة تدعى المصيصة في مدينة الفسطاط في

مصر بجوار أبناء جلدته من اليهود[67] وأظهر ديانته اليهودية وأرتد عن الإسلام الذي تظاهر به عندما كان يسكن ضمن أملاك الدولة الموحدية[68].

وقد ترك ابن ميمون الكثير من المؤلفات وفي مختلف فنون المعرفة الدينية والفلسفية والطبية ومن ذلك شرح للتلمود وعدة شروح لكتب جالينوس[69] ودلائل الحائرين في شرح فلسفة أرسطو وهو أعظم كتبه الفلسفية، وتهذيب كتاب الأستكمال لأبن هود في الرياضيات ومقالته في صناعة المنطق وفي أبواب الشريعة اليهودية[70] وكانت لكتابات بن ميمون الدينية والفلسفية تأثير عظيم في التفكير الأوربي في العصور الوسطى[71] توفي بن ميمون في القاهرة سنة (650هـ / 1253م) [72].

ومن علماء اليهود نذكر ايضاً الراب يهوذ لاوي المتوفي سنة (548هـ/ 1153م) له مؤلفات كثيرة في العقيدة اليهودية ومنها كتاب الحقيقة والالهيات في الدين اليهودي[73].

ومنهم ايضاً ابن عزر الطليطلي المتوفي سنة (572هـ / 1167م) صاحب كتاب الحكيم الكبير الذي تضمن شرحاً لفظياً لنصوص العهد القديم كذلك كانت له مؤلفات في النحو والفلسفة والفلك والطب[74].

كذلك برز اليهود في مجال الكتابه وهي من الوظائف الحساسة في الدولة حيث يذكر ابن عذاري المراكشي [75] ان والي مدينة غرناطة في عهد علي بن يوسف أباعمر يناله اللمتوني كان له كاتب يهودي الأعراق والأخلاق.

اضافة الى ذلك فقد نبغ اليهود في مجال الشعر ومن ابرز شعرائهم يهودا بن ليفي الطليطلي المتوفي (537هـ/ 1142م) الذي كناه العرب بابي الحسن وكان يكتب العربية بجمال نادر وقد الف رسالته المسماة (الحجة والدليل في نصرة الدين الخليل باللغة العربية الفصيحة) [76].

ومن شعرائهم ايضاً موسى بن عزرا المتوفي (532هـ / 1137م) وهو من اهل غرناطة وكان بليغاً في العربية ومن كتبه كتاب المحاوره والمذاكره وكتاب الحديقة في معنى المجاز والحقيقة[77].

مما تقدم يتضح بان اهل الذمة لعبوا دوراً كبيراً في النهضة العملية والفكرية التي شهدتها الدولة الأسلامية في عهد المرابطين والموحدين وماذكرناه آنفاً دليل قاطع على مشاركتهم بشكل فاعل في مختلف مجالات الحياة.

الخاتمة

- أتخذ بعض الأمراء المرابطين والموحدين سياسة متشددة أتجاه أهل الذمة فرضتها عليهم طبيعة الظروف التي كانت تمر بها هاتان الدولتان فبالأضافة الى طبيعتهما الدينية المتشددة في فرض أحكام الدين الأسلامي شهد عصرهما حروباً صلبية طاحنة بين المسلمين والصلبيين في جبهة المشرق والمغرب.
- حدث تغير جوهري في سياسة الموحدين أتجاه أهل الذمة في عهد الأمير أدريس بن المامون ولم يكن هذا التغيير ناجم عن تغير في فلسفة الدولة أتجاه أهل الذمة وأنما كان نتيجة ضعف الدولة الموحدية وأنشغالها بالصراعات الداخلية وتدخل القوى الأجنبية في شؤونها الداخلية الأمر الذي سمح لأهل الذمة في عهد الأمير المذكور وخلفائه بممارسة طقوسهم الدينية بحرية وسمح لهم بإقامة كنيسة في العاصمة مراكش وعين لهم أسقف يرجعون اليه في أمورهم الخاصة.
- تقلد اهل الذمة في ظل المرابطين والموحدين مناصب مرموقة في الدولة كقيادة الجيوش والعمل كسفراء اضافة الى جباية الأموال وغيرها.

- ساهم أهل الذمة بدور مهم في رفد الحركة الفكرية والعلمية في الدولتين المرابطية والموحدية بمختلف أنواع العلم والمعرفة وخير مثال على ذلك موسى بن ميمون وأبن عزرا النطلي الذين تلقوا علومهم في الموسسات العربية الأسلامية
- كشفت الدراسة عن تعاون أهل الذمة مع أعداء المسلمين في الأندلس بحكم وحدة الديانة.

بسم الله الرحمن الرحيم

الملحق رقم (1)

رسالة الخليفة المرتضى لأمر الله الموحدي الى البابا أنوسان الرابع

صلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً والحمد لله وحده من عبد الله عمر أمير المؤمنين بن سيدنا الأمير أبي إبراهيم بن أمير المؤمنين أبن أمير المؤمنين أيدهم الله تعالى بنصره، وأمدهم بمعونته. الى مطاع ملوك النصرانية ومعظم عظماء الأمة الرومية، وقيم املة المسيحية واورث رياستها الدينية، البابة أبنه سانس أش، أنار الله تعالى بصيرته بتوفيقة وإرشاده، وجعل التقوى التي أمر عز وجل بها عدته لمحياه ومعاده ، وأناله من سابق الهداية، مايفضى لمدى الغاية، باتم أنفساحه وأمتداده تحية كريمة نراجع بها ما تقدم من تحياتكم الواردة علينا، ويترجم لكم أرجها عما تعتمدكم به البار لدينا.

أما بعد فانا نحمد الله الذي لا إله إلا هو، حمد من علم أنه الرب الواحد ، الذي دلت على وحدانيته البراهين القاطعة والشواهد ، ونزهته العقول الراجحة عن أن يكون له ولد أو يدعى أنه الوالد، تعالى الملك الرحمن عما يقول المثلث والمشبه والجاحد ، ونصلى على سيدنا محمد رسوله المصطفى الكريم، الذي وضحت به للنجاة المذاهب والمقاصد، وخرقت له بظهور المعجزات الباهرة على يديه العوايد، ونصر بالرعب فالقى له يد الاستسلام كل من كان ينادي ويعاند، وعلى آله وصحبة الكرام، الذين أزدانت بهم المحاضر والمشاهد، وصلت صوارمهم في مواقف الحروب السواعد، وأنجزت لهم في استيلاء الإسلام على مشارق الأرض ومغاربها المواعد. ونسئل الله عز وجل رضاه عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم، الذي جذبه لدين الله تعالى الشباب الوعاود، وأهلت بهدايته بعد أقفارها المعهد، وباء بالخسران المخاتل لأمره والمكايد ، وعن لخلفاء الراشدين المهتدين ، الذين تولى منهم إتمام بدايته الإمام الراشد فالراشد ، وعلت بهم لأمر اللهتعالى المراقى والمصاعد ،وعن سيدنا الأمير الطاهر أبي إبراهيم بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين الذي طابت منه العناصر والمحاند ، واشتق من نبعه للخلافة مذ أوراق نضارة وغضارة قنتها المآئد ، وزهد في الدنيا الفانية، ورغب في الأخرى الباقية ن فنعم الراغب الزاهد.

وبعد كتابنا كتب الله تعالى لنا حظوظا من رضاه، تزكو وتتوفر، وأستعملنا وغياكم بكل مانتهيأ به لإحراز الفوز لديه ونتيسر، من حضرة مراكش حرسها الله تعالى، ودين الله عز وجل عال مسماه ومصعده، والتوحيد حال بالظهور جيده ومقلده، والسعى معمل في أبتغاء {منٍّ} الله تعالى موقفه ومسدده والحمد لله رب العاليمن حمداً يتوالى على الأسنة تكرره وترددده، ونستدعي به من مزيد النعماء أفضل ما وعد به تعلى من يشكره ويحمده، والى هذا يسر الله تعلى بتوفيقه إسعادكم ، وجعل في طاعته التي تعبد بها خلقه أصدار {كم} وإيرادكم ، فانه سبقت منا اليكم مراجعات عن كتبكم المؤثرة الواصلة إلينا {وأرسلنا} نحوكم من الجواب عنها ن ماتممنا به بركم ووفينا، وعرفناكم أن نوجب لمنصبكم الذي أبز في ملتكم علىالمناصب ، وأقر لرتبكم فيه أهل دينكم ، بالشفوف علىسائر مالهم من المراتبن فانتم عندنا لذالكم بالتكرمة الحفيلة ملحوظون ، بالعناية

الجميلة محظوظون، نؤكد من اسباب المواصلة لكم ماحقه أن يؤكد، ونجدد من عهود الحافية بكم ما شأنه أن يجدد، ونشكر لكم ماتوالى علينا من حسن إيثاركم لجانبنا وتردد.

وفي سالف هذه الأيام أنصرف عن حضرة الموحدين أعزهم الله ، البشب الذي كان قد وصل بكتابكم إلينا، أنصرافا لم يعد منا فيه بر وإكرام ، لم يغبه فيه أعتناء به وأهتمام، كما أنه في المدة التي قضى له فيها لدينا بالمقام، لم نزل نتعهده أثناءها بالإحسان والإنعام، وتحمّل كتابنا غليكم تعريفاً مما أختار من أنصرافه، وتوخياً في ماآثره من ذلك لإسعافه، وماقصر له في حالى مقامه ورحيلة، ولاعدل به عن حفي البر وحفيله، وسنى الممن وجزيله، ذهابا لتكريم إشارتكم السابقة في حقه، وسلوكاً به من البر على أوضح طرقهن والله تعالى يرشد في كل الأحوال لأزكى الأعمال لديه، وينجد من الأقوال والأفعال على مايقرب إليه ممنه. ومتى سنح لكم أسعدكم الله تعالى بتقواه، أن توجهوا لها ولاء النصارى المستخدمين ببلاد الموحدين أعزهم الله ، من ترونه برسم مايصلحهم في دينهم ويجريهم على معتاد قوانيهم، فتخيرواه من أهل العقل الارجح، والسمت الحسن وممن يستلذ في النزاهة على واضح السنن، وممن يتميز في الخدمة بالمذهب المستجاد والقصد المستحسن،وذلكم هو الذي إذه تعين من قبلكم مستجمعاً للصفات المذكورة، ومتحلياً بالحلال المشكوره، حسن في كل مايستخدم، وتسنى له، بذلك أجزل الخير وأفره، وأنتم تفون بهذا المقصود في ماتعلون من أختياركم متى ظهر لكم التوجيه بهذا الرسم لأحد، وتعتمدون فيه أجمل معتمد، وشكرنا لكم على كل ماتذهبون غليه في جانبنا منتمشيه الأغراض والمذاهب، وتحتفلون فيه من المساعدة الصادرة فيكم عن كرم الضرايب، وتبادرون الى بذله من المكارمة المناسبة لما لكم في نحلتكم من أناقة المناصب، مما نكافئ به صدق مصادقتكم، ونتوخى فيه ما لايعدل عن ماوافقتكم، جزاء ليركم بامثاله، واعتناء بما يقضى لولائكم بدوامه وأتصاله، بحول الله تعالى وقوته، وهو سبحانه ييسرنا لنيل الحسنى، والزيادة منفضله، ويأخذ ما في ديننا ودنيانا على أقوم سبله، ويجعلنا وإياكم بما يمنحنا من التوفيقن وفذ أول رعيل من حزب الحق وأهله، بمنه وكرمه، لا رب سواه، وكتب في الثامن عشر من شهر ربيع الأول عام ثمانية واربعين وستمائه.

ملحق رقم (2)

الصورة الفوتوغرافية لكتاب المرتضى الموحدي الى البابا أنوسان الرابع

الهوامش

1- أبن عبدالحكم: أبو القاسم عبدالرحمن القريشي (ت276هـ/899م) ، فتوح مصر والمغرب، تحقيق الدكتور علي محمد عمر ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2004 ، ص 232.

2- السامرائي : خليل إبراهيم وأخرون ، تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس ، مديرية دار الكتب للطباعة والنشر ، الموصل ، 1986 ، ص 10ـ16.

3- أبن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ، ص 240.

4- السامرائي : تأريخ المغرب ، ص 118.

5- المصدر نفسه.

6- ابن الخطيب : لسان الدين محمد ابن عبد الله السلماني (ت776هـ/1374 م) ، الإحاطة في اخبار غرناطة ، ط4، تحقيق محمد عبد الله عنان ، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 2001، 151/1.

7- عنان : محمد عبد الله ، دولة الإسلام في الأندلس منذ فتح الى بداية عهد الناصر ، ط3 ، مؤسسة الخانجي بالقاهرة ، 1960 ، ص62.

8- أحمد : علي ، اليهود في المغرب والأندلس في العصور الوسطى ، مجلة دراسات تاريخية ، جامعة دمشق العدد (57-58) دمشق ، 1996، ص167-168.

9- المياحي : عبد حمزة محسن ، دراسات في طبيعة العلاقات العربية اليهودية في الأندلس، مجلة القادسية، المجلد الثالث ، العدد الثاني جامعة القادسية 1998، ص110-114.

10-مجهول (كاتب مراكشي عاش في القرن السادس الهجري) الأستبصار في عجائب الأمصار، د.ط ، تحقيق الدكتور سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد 1986، ص202.، الحميري: ابو عبد الله محمد بن عبد المنعم (ت727هـ/1493م)، الروض المعطار في خبر الأقطار ، ط2، تحقيق الدكتور أحسان عباس ، بيروت 1980 ، ص307.

11-ابن أبي زرع : أبو الحسن علي بن عبد الله الفاسي(ت بعد 726هـ/1326م)، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والنشر ، الرباط 1972، ص47 .، ابن الخطيب : لسان الدين ، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلال من ملوك الإسلام ، تحقيق ليفي بروفنسال ، ط1، مكتبة الناشر ، القاهرة ، 2004، ص15-16.

12- الفيروز أبادي : مجد الدين محمد بن يعقوب ، القاموس المحيط ، ط4 ، القاهرة ، مطبعة دار المأمون ، 1357هـ ، ج4 ، ص115.

13- زيدان: عبدالكريم ، أحكام الذميين والمستأمنين في دار الأسلام ، ط1 ، بغداد ، 1963 ، ص22.

14- اليوز بكي : توفيق سلطان ، النظم العربية الأسلامية ، ط2، الموصل ، 1979، ص223.

15- ديوارنت : ول ، قصة الحضارة ، ترجمة محمد بدران ، مكتبة الأسرة ، القاهرة ، 2001 ، 296/13، بروكلمان : كارل ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، ط5 ، ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكي ، دار المعلم للملايين بيروت ، 1968 ، 180/2.

16- أبو شامة : شهاب الدين محمد بن عبد الرحمن ، (ت665هـ/1227م) ، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية ، دار الجيل ، بيروت ، د.ت ، 35/1.

17- سامية مصطفى : الحياة الإقتصادية والإجتماعية في أقليم غرناطة في عصر المرابطين والموحدين ، ط1 ، مكتبة الناشر ، القاهرة 2003 ، ص225 .

18- أبن عذاري : أحمد بن محمد المراكشي (ت بعد 712هـ 1312م) البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، ط1 ، تحقيق الدكتور أحسان عباس ، دار الثقافة والنشر ، بيروت ، 1980، 69/4.

19- مجهول (كاتب مراكشي عاش في القرن الثامن الهجري /الرابع عشر الميلادي) الحلل الموشية في ذكر ألأخبار المراكشية ، د.ط، تحقيق الدكتور سهيل زكار وعبد القادر زمانه دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء ، 1979 ، ص91 .

20- أبن عذاري : البيان ، 4 / 72 .

21- مجهول : الحلل الموشية ، ص90-91.

22- الأدريسي : محمد بن عبد الله بن ادريس (ت558هـ / 1163م) نزهة المشتاق في اختراق الأفاق ، مكتبة الثقافة الدينية القاهرة ، 2002 ، ص235.

23- الجرسيقي:عمر بن عثمان بن عباس (لايعرف تاريخ وفاته)، رسالة في الحسبة ، د. ط ، تحقيق ليفي بروفنسال ، نشرت تحت عنوان ثلاث رسائل أندلسية في أدب الحسبة والمحتسب ، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي ، القاهرة ، 1955 ، ص122.

24- أبن صاحب الصلاة: عبدالملك بن محمد (ت 594 هـ / 1197م) ، تاريخ المن بالأمامه على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين ، د. ط ، تحقيق عبدالهادي التازي ، دار الأندلس للطباعة والنشر ، بيروت ، 1964 ، ص 187.

25- أبن عذارى المراكشي : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، القسم الثالث ، تحقيق أمبروسي هويثي ميراندة ، تطوان ، 1960، ص 50.

26- مجهول : الحلل الموشية ، ص 138.

27- الضبي : أحمد بن يحيى (ت 599هـ / 1202م) ، بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، د.ط، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، 1967 ، ص 45 ــ46.

28- سبط أبن الجوزي: شمس الدين أبي المظفر التركي (ت 654هـ/ 1256م)، مرأة الجنان في تاريخ الأعيان ، د . ط، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، حيدر أباد الدكن ، 1961، 8/ 542.، حسن: علي حسن، الحضارة الأسلامية في المغرب والأندلس في عصر المرابطين والموحدين ، ط 1 ، مكتبة الخانجي، القاهرة، 1980، ص 368.، علام : عبدالله علي، الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبدالمؤمن بن علي، د.ط، مطابع دار المعارف ، القاهرة، 1971، ص 240 .، المرعي: أبتسام خلف الله، العلاقة بين الخلافة الموحدية والمشرق الأسلامي، د . ط ، مكتبة الجامعة العربية ، بيروت، 1985، ص 285.

29- القفطي : الوزير جمال الدين علي بن القاضي، (ت 646 هـ 1248م) ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء، دار الأثار للطباعة والنشر ، بيروت ، د . ت ، ص 209.

30- أبن جبير : أبو الحسن بن أحمد الكناني ، ، (ت 614 هـ / 1217م) ، رحلة أبن جبير ، د . ط ، دار صادر بيروت ، 1980 ، ص 55ــ 56.

31- المراكشي: محي الدين عبدالواحد بن علي التميمي ، (ت 647هـ / 1249م) المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، ط 1 ، تحقيق محمد سعيد العريان ، محمد العربي العلمي ، مطبعة الأستقامة ، القاهرة ، 1947 ، ص 305.

32- مجهول : الأستبصار ، ص 187 ، ص 202.

33- أبن المؤقت: محمد بن محمد العبدالله المبارك، السعادة الأبدية في التعريف بمشاهير الحضرة المراكيشية، ط 2، الدار البيضاء، د. ت ، ص 119.، المياحي، مشتاق كاظم عاكول ، الحياة الاقتصادية والاجتماعية في مدينة مراكش خلال عصر الموحدين، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية التربية ، جامعة بغداد ، 2000 ، ص118.

34- المراكشي : المعجب ، ص 304 .، الزركشي : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم ، (ت894هـ / 188م)، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط 2، المكتبة العتقية ، تونس ،1966 ، ص 16.، أبن الخوجة محمد الحبيب ، يهود المغرب العربي ، د.ط ، القاهرة ، 1973 ، ص 30.

35- الأنيس المطرب ، ص 250، 251.

36- السلاوي : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري ، (ت 1315هـ/1897م) ، الأستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري ، الدار البيضاء 1954، 2 / 239.، جوليان : شارل أندريه ، تاريخ أفريقيا الشمالية ، ترجمة محمد المزالي والبشير بن سلامة ، تونس ، 1958 ، 2 /162.

37- عنان : محمد عبدالله ، عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، ط2، مطبعة الخانجي ، القاهرة ، 1990 ، 383/2.

38- أبن أبي زرع : الأنيس ، ص235.، السلاوي : الأستقصا ، 2 /238.

39- أبن عذارى المراكشي : البيان الموحدي ، ص 281.، المراكشي: عبدالواحد ، العجب ، ص 334.

40- عنان : عصر المرابطين والموحدين ، 2 /537.

41- م. ن ، نفس الصفحة.

42- م . ن ص 739ــ741.

43- حمادة : محمد ماهر : الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال أفريقيا ، ط1، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1980، 435/7ــ485.

44- م . ن نفس الصفحة.

45- عنان : عصر المرابطين والموحدين ، ص 739ــ741.

46- ديوارنت : قصة الحضارة ، 296/13.، بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية ، 180/2.، أشباخ : يوسف ، تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ، ترجمة محمد عبدالله عنان ، ط3، مكتبة الخانجي ، القاهرة ، 1996، 238/2ــ239.

47- الحضارة الأسلامية ، ص 366ــ 368.

48- البيان المغرب ، 98/4.

49- الحلل الموشية ، ص 90.

50- أشباخ : تاريخ الأندلس ، 239/2.، عنان : عصر المرابيطن والموحدين ، 232/2ــ242.

51- المن بالأمامة ، ص 87.

52 – البيدق : أبو بكر الصنهاجي (توفي في القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي)، أخبار المهدي أبن تومرت وبداية دولة الموحدين، د. ط ، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، 1971، ص 47.

53- أبن عذاري : البيان المغرب ، 4 /98.

54- البيدق : أخبار المهدي ، ص 49.

55- البيدق : أخبار المهدي ، ص 52.

56- أبن القطان : علي بن محمد عبدالملك الكتامي (ت 648هـ / 1230م) ، نظم الجمان وواضح البيان فيما سلف من أخبار الزمان ، د. ط ، المطبعة المهدية ، تطوان ، د . ت ، ص121.

57- أخبار المهدي ، ص 52.

58- أبن عذاري : البيان المغرب ، 103/4.

59- أبن خلدون : عبدالرحمن محمد الحضرمي ، (ت808هـ/1405م) ، تاريخ أبن خلدون المسمى العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، تحقيق خليل شحاذة وسهيل زكار ، دار الفكر للطباعة ، بيروت ، 2000 ، 6 / 308

60- عنان : عصر المرابطين والموحدين ، 2 /248.

* وتتكون من ثلاث جزر هي ميورقة ومنورقة ويابسة وتقع غرب البحر المتوسط في الجهة الشرقية من الأندلس وأكبر هذه الجزائر ميورقة ونظر لموقعها الجغرافي بين هذه الجزائر وكبر مساحتها كانت المركز الإداري للجزائر الشرقية. ولمعرفة تاريخ هذه الجزائر ينظر ، حبيب ، أمارة بني غانية في الجزائر الشرقية دراسة في أحوالها السياسية ، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة بغداد ، 1983 ، 20 وما بعدها.

61- أبن القطان : نظم الجمان ، ص 96.، أبن خلدون ، العبر ، 356/6.

62- أبن عذري: البيان الموحدي ، ص 146 ــ 147 .، أبن خلدون: العبر ، ص 254.

63- أبن عذاري : البيان الموحدي ، ص 155 ــ 156 .، أبن خلدون : العبر ، ص258.

64- ديوارنت : قصة الحضارة ، 296/13.

65- أبن أبي أصيبعة : أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي ، (ت688هـ / 1269م) ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، د . ط ، دار الثقافة ، بيروت ، 1979 ، 3 / 194.

66- عنان : عصر المرابطين والموحدين ، 2 / 723.

67- سبط أبن الجوزي : مرآة الجنان ، 8 / 542 .، علام : الدولة الموحدية ص 249.، المرعي : العلاقة بين الخلافة الموحدية والمشرق الأسلامي ، ص 285.

68- القفطي : أخبار العلماء ، ص 209.

69- م . ن ، ص 209 ــ210.

70- أبن أبي أصبيعه : عيون الأنباء ، ص 195.

71- عنان : عصر المرابيطن والموحدين ، 2 م 724.

72- القفطي : أخبار العلماء ، ص 209 ــ 210.

73- أشباخ : عصر المرابطين والموحدين ، 2 /256.

74- المصدر نفسه .

75- أبن عذارى : البيان ، 4 /77.

76- السعيد : محمد مجيد، الشعر في عهد المرابطين والموحدين، دار الرشيد للنشر، بغداد 1980، ص 54.

77- المصدر نفسه ، ص 55.